عصفور في بيتنا

-قصة للأطفال-

حسن إمامي

عصفور في بيتنا

لمّا قرأ ***أمين*** قصةَ السمكةِ لمسةَ، خَاطَبَ أُخَته ***هدى***: أنا كذلك عندي قصةٌ عجيبةٌ وفريدة.

ـ ما مضمُونها؟ ومن أبطالُها؟ سألتْه ***هدى***.

ـ سأحكي لك قصةَ دلفينٍ أليفٍ، يعيش في مياهِ بحرٍ نظيف.

ـ وَلِمَ لا تحكي لي قصةَ عصفورٍ لطيفٍ، يملأُ زوايا كلِّ أشجارِ الريف؟

ـ لا، أنا أريد أن أحكيَ عن دلفينٍ عاشَ مغامراتٍ واِشْتاقَ في حنينٍ لأسرتِه.

تدخَّل العصفورُ وهو يُتابِعُ حِوارَهما مِنْ فوقِ جدارِ سطحِ المنزلِ:

ـ أنا كذلك عندي ما أَحْكِيه لكما، ولكُلِّ طفل وديع مِثْلِكُما:

أنا، لَمّا اِنْفَتَحَتْ قِشرة بيضي، ورَحِمِي، نقَرْتُها بمنقاري، اسْتقْبلَتْنِي أشعةُ الشمسِ وظلالُ أمي وزقزقتُها، فرحةً بميلادي.

حَمَتْنِي بِجَنَاحيْها خوفًا عليَّ مِن حَرّ أشعةِ الشمسِ. ناوَلَتْنِي بِلِسَانِها أُولَى قطراتِ ومُضَغٍ طعامي وشرابي.

بَيْتِي، عُشٌّ نَسَجَه وَالِدَيَّ بألْفِ وألفِ عودٍ وريشٍ وكلِّ ما هو رطبٍ فوق أرضِ الله الشاسعة والرَّحْبَة.

عُنواني غُصْنُ شجرةٍ في بستانٍ، في سهولٍ هي دياري.

مِنْ أعلى الشجرة رأيتُ حُرّيتي في تحليقي ورفرفةِ جناحَيَّ، وتَماسُكِ طَيَراني.

أنا عصفورٌ تَعلّمَ التحليقَ. الغناءُ لُغَتِي مع الخَلْقِ والطبيعة. تعلَّمتُ مثلَ الطُّيورِ التي تذهب خِماصًا وتعود بِطانا.

تتذكرون يوم دخولي منزلَكما، وتيهي بين أَسْقُفِ الغُرَفِ والجدران.

أَتذكَّرُ تصايُحَكُم وحركاتِكم: "طيرٌ عندنا، طائرٌ عندنا". أعجبتني عبارة: عصفورٌ في بيتنا.

وأنا ناجٍ من قَبْضتِكما، من فضاءٍ إلى فضاء، وكيف نجوتُ بِتَسلُّلِي من فتحةِ سقف بهْوِ المنزل، تاركا ريشًا تَطايَرَ مِنْ جَناحيَّ.

هي مُغامَراتِي كلَّ يومٍ من أجل الحياةِ والقوتِ وكشفِ الأسْرارِ.

أنا عصفورٌ حَلّقَ بضعةَ أَمتارٍ، فوْقَ شاطئِ رملٍ وصخورِ ساحلٍ، وعشراتِ أمتارٍ داخلَ بحرٍ.

هَالَنِي تَصَاعُدُ الأمواجِ بالحركة والصوت، وكلُّ ما أخافني جسمٌ يَتطايَرُ من جَوْفِ الماءِ في ارتماءةٍ نصفِ دائريةٍ إلى الماءِ.

تسَاءَلتُ: هل هو طائرٌ يحاولُ أنْ يَطِيرَ مِنَ الماء إلى الماء؟

وَجدْتُ الجوابَ بسرعة:

هو دلفين يعيشُ في البحرِ، يتنفسُ في الماء، وأنا طائرٌ أعيشُ في السماء وأتنفسُ بالهواءِ.
سأحكي لكُما قصةَ الدّلفينِ العجيبِ. ولقد سبق أن حَكَيْتُها ورَوَيْتُها ***لِلأمين***. لكنَّ ***هدى*** لم تسمعها بعدُ.

قال ***أمين***:
ـ أنا الذي سأحكي لكما قصة الدلفين:
اِسْمُه: ***سُرور***، مثلما أن اسمَك يا عصفورُ: ***نور***.
...
وقبل أن يبدأ ***أمين*** حكي قصةَ الدلفين، صار يغني مع أختِه ***هدى***:

على كتفي الأيسر

هبَّ ريح زقزقاته* بفضاء مسمعي

رسا* بهدوء، على كتفي الأيسرْ.

زقزق وانحنى بمنقاره،

تحية العصافير للبشرْ.

عَنْدَلَ ثم عندل*،

مُتَّخِذًا مِن كتِفي مِنبرْ.

رافعًا رأسَه، زقزقَ وعندلَ

ولامَس ريشُهُ خدِّيَ الأيسر،

كانت رِيشتي، فُضولَه في رسمي للصورْ.

فتحَ منقارَهُ

طالبًا ما لاح بالرَسْمَ

ما لاح مِن عَنْبَرْ،

وما عَصْفَرْتُ* به محيطَ عُصفُر وعنبرْ.

جَدَّد رَفْرَفاتِه* بين هذا الفضاء،

وهو يرسم الصورْ

أسرع في التحليق

بعد اِسْتِدارات، مُتهيِّئًا للسفرْ!

رحلة بحث عن ياسمين وعُصفَرْ*

ما لاَحَ في الرسْمِ مُجَرَّدُ صُوَرٍ وفِكَرْ.

لاح العصفورُ للطبيعة مُعنِدلاً

لاح العصفور للحرية شاديا.

في التحليق حب اكتشاف!

بين رسمي للصورِ، وتجلي هذه الفِكَرْ،

عاد العصفورُ من لَمْحةِ بصرٍ وسفرْ.

بين المخالب والمنقار

ياسمينٌ، وحجرُ عَنبرْ*.

وضعتُ ريشتي، واسْتلمتُ هديتي،

من عصفوري الذي بعدها رَسَا*،

على كتفي الأيسرْ

- عَدْلَ الْعَنْدَلِيبُ: صَوَّتَ
- رفرفاته: صوت أجنحة الطائر حين التحليق.
- عصْفَرْتُ، عصْفَر الثَّوبَ وغيرَه: صبغه بالعُصْفُرِ وهو نبات يُستخرج منه صبغ أصفر.
- عُصْفُر: (النبات) نبات من الفصيلة المُرَكَّبة أنبوبيَّة الزّهر يُستخرجُ منه صِبْغُ أصفر.
- العنبر مادة صلبة تنبعث منها رائحة زكية إذا أحرقت.
- رشا وقف فوق كتفه.
- زقزقة صوت الطيور والعصافير. الجمع زقزقات.

<u>حسن إمامي - المغرب</u>